❶. **عن ميلاد الشعر المعاصر**:

السياق الذي تتجه الدراسة إليه هو غير السياق العربي، لأن المراد النظرُ في مَظانِّ صناعة منظومة ثقافية تَوَجَّه الوعيُ العربيُّ إليها متأثرا لا مؤثرا، وتابعا لا يملك أن يفرض رؤاه وأدواته. حتى في الغرب، شهدت هذه المرحلة ميلاد تيارات ومذاهب أدبية، طبعها التمرد ولازمتها إرادة التحرر، أتت على الكثير مما أصبح يُنعَت بالتقليدي المتجاوَز، وبالكلاسيكي الذي عفا الزمن عليه، وبالقديم المدعو إلى ترك مكانه للجديد بما يحمله هذا الأخير من أسئلة. أفرز كل ذلك أشكالا تعبيرية اتحدت منطلقاتها، واختلفت طرقها ووسائلها، رست على الشعر واختارت له لغة جديدة، وانعطفت على النثر واختارت الرواية ثوبا له.

أما قصة ميلاد القصيدة المعاصرة فتبدأ بسؤال وجودي طرحه المثقف العربي، وهو يقف على هامش التحولات التي عرفها الإنسان بداية القرن العشرين، وقد وقف يومها موقف حيرة هزت كثيرا من المسلمات لديه. دائرة السؤال واسعة، ولكنا نقف عند حدود الأدب الذي كان يراد منه أن يكون واجهة الأمة وصانع تحولها ــــــــ كسائر الأمم ـــــــ من وضع إلى آخر يحمل جديدا. سكن المثقفَ يومها، خصوصا الشاعر، هاجس التحول هذا، من غير أن يبين مجموع المسكونين به عن الهدف العميق المطلوب تحقيقه، هل يتغير لأن غيره تغير، أم يتغير لحاجة داخلية يحس بها، أم يتغير استجابة لحاجة حضارية إن كان لا يدرك حقيقتها الأنطولوجية فهو يدرك سريانها في وعيه العميق.

كانت النظرة التراجعية (إلى الخلف) تكشف عن واقع لا يرضاه المثقف بصورة عامة، والشاعر بصورة خاصة، وتميط اللثامَ عن عَيِّنةٍ من الـمُكوِّن البشري بإمكانه أن ينهض بواقعه ولكنه لا يفعل، وبإمكانه أن يستشرف ولكنه يُؤْثِر السكونية ــــــــ إما مجبرا وإما مختارًا ـــــــ . على أن هاجس التغيير سَكنَ الكثيرَ من الأدباء، فرأوا أن في الاكتفاء بالضيافة على العصر أمرا مهينا، وفيه من الخطر ما قد يأتي على مستقبل الوجود العربي، من بوابة الثقافة وعنوانها الأبرز: الشعر.

راود الناسَ يومها هاجسٌ يحمل اسم التجديد، وبقدر الاتفاق على جدواه وأهميته اختلفوا في شكله وطرق إجرائه، بين متحمس إلى الجمع بين القديم العربي والحديث العربي (على فرض وجوده)، وبين ذاهب إلى جمع القديم العربي بالحديث الغربي، وبين رافض لكل شكل قديم لحساب الجديد وإن مستعارَ البنية والحقيقة.

من هذه الفصيلة الأخيرة طلعت نخبة تنادي بالجنوح إلى جديدٍ ينسف أشكال القديم ويقترح بِنًى تتناسق مع بِنى الثقافة الإنسانية الجديدة، بل ومع روح الشعر العربي في أصالته، وفرضوا اسم "التجديد" عنوانا لما يريدون، ولمن يرضون عنه ممن يستجيب إليه من الشعراء. ولما كان الشكل هو مرآة المنجز الذي يشتغلون على إرسائه، ظهرت على أيديهم تسميات للقصيدة لم يكن للناس عهد بها: الشعر الحر، قصيدة التفعيلة....وانعطفوا عن أكثر الترتيبات التي مضى عليها أصحاب الشأن، وهجروا أثر الدرس الاستشراقي الذي فرض النظر في الأدب العربي بحسب عصوره وأغراضه، بهدف التأسيس لتشكيل جديد هو في حقيقته مستعار وليس أصيلا.

الشائع أن أول صوت استعلن بهذا الجديد هو صوت العراقية نازك الملائكة، ولنستمع إليها تقول: « كانت أول قصيدة حرة الوزن تنشر، قصيدتي المعنونة "الكوليرا".» غير أن في معاصريها بل ومواطنيها من نازعها هذه الريادة، فالشاعر العراقي السياب يرى أن الأسبقية تعود إليه. ويقف على مقربة من موقف السياب المحتج، شاعر عراقي آخر هو عبد الوهاب البياتي الذي يرى لنفسه موقعا في خارطة التجديد، ولكن يبعد أن يكون الأمر كذلك. فإذا كان السياب أكثر حضورًا، على مستوى نوعية النصوص وعلى مستوى صداها نقديا، وإذا كانت لنازك أسبقية نشر نماذجها الجديدة، فإن ذلك لا يترك مكانا للبياتي في هذه الخارطة، خصوصا وأنه لم يُثْبِت في لاحق التجربة (كتابةً ونشرا) ما يزكيّ دعواه ودعوى من ينتصر لأسبقيته فضلا عن ريادته. ظل البياتي إلى آخر أيامه صوتا يساريا يراهن على يساريته، وعلى استقبال إنتاجه من طرف شريحة تميل إلى هذا الفكر ولا تعد معاييرُها شيئا مجمعا عليه فنيا.

هذا على مستوى الإبداع، أما على المستوى التنظيري، فإن الذي لا خلاف حوله هو أن جماعة شعر، بزعامة السوري الأصل أدونيس (علي أحمد سعيد)، وبمرافقة اللبناني يوسف الخال، وبمشاركة اللبناني أنسي الحاج لاحقا، هؤلاء هم نواة مدرسة التجديد الشعري، وهم ـــــــ وإن التحق بهم آخرون ـــــــ رواد هذا المنحى في تاريخ العربية الحديث. فقد دأبوا بإصرار عجيب على الدعوة إلى مذهبهم، وانتظام صبور لم يكل، وأصدروا في بيروت ــــــ شتاء 1957 ــــــ مجلة باسم الجماعة "شعر" ترأس تحريرها الشاعر يوسف الخال، الذي استوحى فكرتها من شعر الأميركي.

لا بد من الوقوف عند خلفيات هذا الإصدار وعند العوامل الثقافية الإيديولوجية التي كانت وراءه. بداية بعنوان المجلة. فمجلة "شعر" هو عنوان مجلة كانت تعنى بالشعر الأمريكي، راعيها والساهر على إصدارها هو الشاعر ازرا باوند Ezra Weston Pound (1885-1972) وكان عضوا في الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، فقد جاء يوسف الخال، من أمريكا التي ذهب إليها سنة 1948 بتأثيراتِ وسحرِ أنماطٍ شعريةٍ جديدةٍ سحرت من قبله [جبران خليل جبران](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%86_%D8%AE%D9%84%D9%8A%D9%84_%D8%AC%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%86)، [وميخائيل نعيمة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%8A%D8%AE%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84_%D9%86%D8%B9%D9%8A%D9%85%D8%A9)، [وأمين الريحاني](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%85%D9%8A%D9%86_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%8A%D8%AD%D8%A7%D9%86%D9%8A)، فعاد إلى بيروت متسلحًا برؤية مغايرة وبدور تاريخي، عليه أن يلعبه من خلال مجلة طليعية مشابهة لمجلة شعر الأميركية.

إذا أدركنا هذا، وقفنا على الأرضيات الحقيقية التي قامت عليها دعوة جماعة "شعر" اللبنانية، وحددنا بما يكفي الآفاق التي كانوا يريدون الذهاب إليها من خلال تقمص دور المجدد. وليس المراد من هذا القول رفض التجديد من حيث هو، ولكن المراد النظر في الآفاق التي ارتسمت بإيحاء ـــــــ قريب أو بعيد ــــــــ من منظومات لها خصوصياتها، قد لا تنسجم في تطلعاتها مع الآفاق المحلية، ومع طبيعة الثقافة العربية.

توقفت مجلة "شعر" اللبنانية عن الصدور نهائيًّا عند العدد 44 في خريف العام 1970، بعدما توقفت جزئيًّا بين 1964 و1967.

ليس هذا موقفا منحازا إليهم، فليس كل ما دعوا إليه حظي بالرضى وانساقت إليه الذائقة الجديدة، ولكنّ الذين درسوهم يعتبرون أنه التحول الحقيقي في الشعر العربي الجديد، وأنهم أول من هندس للقصيدة الجديدة هندسة بدأت بكتبتها وأُلْحِقَت بالتنظير النقدي لها.

يُحْسَب لهذا التيار أنه رفض الكتابة على طريقة القدامى، والانغلاق في بؤر التبعية الزمنية وحتى الجمالية لأجيال لا حق لها في تمثيل عصر لا تعيشه، والاعتداء على ذائقته برؤى بينها وبين الحاضر قرون بتراكماتها الجمالية والمعرفية.

أما الذي يُحْسَب عليها، فإرادة الانسحاب من الإطار الثقافي والحضاري للكينونة العربية، لأنهم مثقفون اقتربوا من الغرب وانهزموا أمام مناهجه ورؤاه، وعاشوا اغترابا جراء ذلك اغترابا سلبهم الشعور بالانتماء، إلى درجة الردة على كل ما هو أصيل. هذا ولم تجاهر أدبياتهم بهذا الذي يشبه الاستلاب، ولكنها في صياغاتها بجميع نماذجها تقول ذلك بوضوح.

ألح هذا التيار كثيرا على مراجعة المفاهيم، ولم يكتف بالمراجعة التي يبقى معها للأصل بقاياه، ولكنهم ذهبوا إلى طمسها واستبدال الطارئ الغربي بها، حتى أن النموذج العربي الأصيل لم يعد يعيش داخل الذات المبدعة والناقدة التي هم أكبر عيناتها وأكثرها تمثيلا.

على أن مشروعهم الذي بدأ بصخب كبير، وقد صحبَتْه آلةٌ دعائية قوية جدا، لم يثبت أمام الزمن. وحتى أيام أوجهم، وفي عزّ الاعتراف بصواب خياراتهم، فإن مخالفيهم على اختلاف طبقاتهم وتوجهاتهم لم يستسلموا إلى هذا الفكر الذي لم يروا فيه أكثر من نزعة استلابية، وأكثر من ظاهرة نفسية صلتُها الحقيقيةُ بالأدب تحتاج إلى تأكيد.

ليس فقط على مستوى النظرية، ففي مجال الإبداع ظل الشعر محافظا على إطاره وعلى منهجه، على أيدي شعراءَ كبارٍ ظلوا ينتصرون إلى النسق المعروف، ولم يحصل أن انطفأت جذوة القصيدة بشكلها المعهود.

وإلى اليوم، لم تَخْلُ المواجهةُ بين التيارين من عائد عاد بفائدة على النص الشعري العربي ـــــــ إطارًا للكتابة ومنهجا ذوقيا محدِّدا ـــــــــ ذلك أن التطرف على النص القديم جرّ أنصارَه ـــــــ حتى العُتاة منهم ــــــــ إلى كثير من المراجعات، منها شروط الكتابة الشعرية